مجلة المقري للدراسات اللغوية النظرية والتطبيقية
ISSN 2602-6201
عدد خاص مارس 2020 ، ص16 – ص 30

التجريب الأدبي واللغة العربية مقاربة من منظور هُوِيّاتي

Literary experimentation and the Arabic language are similar in terms of identity

د.عبد الخالق بوراس[1]
جامعة العربي التبسي- تبسة-، aldekhalek.bouras@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2020/02/15 تاريخ القبول: 2020/02/26 تاريخ النشر: 2020/03/22

ملخص: يحاول هذا البحث مقاربة إشكالية علاقة اتجاه التجريب الأدبي بالموقف من اللغة العربية، ومن ثم بالآثار السلبية عليها؛ باعتباره منزعا لا يؤمن بالحدود والتقعيدات اللغوية الهادفة إلى صيانة اللغة كمدخل طبيعي للهوية الثقافية والحضارية، وبذلك فهو يصوّر لا مجرّد حركة أدبية عامة ولكن توّجها متلبّسا بحمولة إيديولوجية وفلسفية وبخطّ ومسلك محدّد لا يخفي ارتباطه الأصيل بمقولات **من نظير الحداثة والتغريب والعولمة بما لها من أثر في توليد مفهوم القطيعة مع الموروث والامتداد الثقافي.**

وعلى الرغم من أن البحث يسعى إلى مقاربة هذه الإشكالية في ظل رؤية مرنة ومتزنة تقوم على مراعاة حقيقة التطوّر اللغوي وضرورة تقريب القواعد اللغوية إلا أنه يحاول المزاوجة بين خطابيْ التجديد والحفاظ على الهوية اللغوية في بعدها الحضاري، وذلك بالنظر إلى المنحى التقويضي في خطاب التجريب الأدبي.

كلمات مفتاحية:اللغة؛ الهوية؛ العولمة؛ التجديد؛ التجريب الأدبي.

Abstract: This research attempts a problematic approach to the relationship of literary experimentation with the attitude towards the Arabic language, as it is a place that does not believe in linguistic boundaries and complications aimed at preserving the language as a natural entry for cultural and civilization identity, in this way it depicts not only a general literary movement but culminates in an ideological burden. And philosophical, with a specific line and course, does not hide its original association with the categories of modernity, westernization and globalization, with its impact on generating the concept of estrangement with inheritance and cultural extension.

Although the research seeks to approach this problem in light of a flexible and balanced vision based on taking into account the reality of linguistic development and the necessity to approximate the grammar, it attempts to mix between renewal and preserving the linguistic letters identity in its cultural dimension, in view of the curtailing trend in the literary experimentation discourse.

Key words: language, identity, globalization, innovation, literary experimentation

[1] – د.عبد الخالق بوراس-، aldekhalek.bouras@univ-tebessa.dz

1- تمهيد:

هل تم النظر إلى منزع التجريب الأدبي نظرة مقتضبة بعيدة عن علاقته بالهوية والخصوصية الثقافية؟

هل تم عزله عن مرجعه الغربي؟ والابتعاد به عن التناول العلمي والمنهجي كظاهرة من ظواهر الهيمنة الغربية على المسارات الثقافية الغيرية؟

هذان سؤالان ملحّان تحاول هذه الورقة العلمية الإجابة عنهما وضمنا تهدف إلى تبيان الخطر الإيديولوجي للتجريب الأدبي على اللغة العربية من وجهة نظر هوياتية منفتحة أساسا على مقولتيْ التعدد الثقافي والخصوصية الثقافية؛ حيث تعد ظاهرة التجريب الأدبي إحدى إفرازات ما بعد الحداثة بوصفها تحوّلا ديناميا في تاريخ وحركة الفكر الغربي، وفي أنظمة المجتمعات الغربي نحو نقض فكرة الثابت والمائز والمركز والدعوة إلى الهامش بكل تمثيلاته.

2- عن اللغة والهوية:

مثّلت المسألة اللغوية إحدى أعقد القضايا الإشكالية في الفكر العربي خاصة في العصر الحديث مع بروز سؤال النهضة الحضارية، وما تولّد عنه من مفارقات تاريخية وثقافية مرتبطة بالهوية والفعل التاريخي.

وقد أثيرت مسألة اللغة والهوية بشدّة مع تراكم مشكلات منهجية مرتبطة بصعود مقولة العولمة كمحطة تمثل رأس الهرم في حالة الصراع الحضاري بين الشرق والغرب « وحسب تعريف روبرتسون للعولمة فإنها تعني تشكيل وبلورة العالم بوصفه موقفا واحدا، وظهور لحالة إنسانية عالمية واحدة، ولذلك تعني العولمة سياسيا أن للأحداث والقرارات والنشاطات في مكان ما من العالم، نتائج وآثار مهمة لأفراد وجماعات ومجتمعات أخرى. وثقافيا ذلك التكوين الذي يشهد تبادلا وتفاعلا ثقافيين بصورة مستمرة ودائمة»[1] فالعولمة من هذا الوجه الثقافي تعني أن الفواصل والحدود الثقافية والقيمية لم تعد موجودة عمليا؛ لأن الثقافات المختلفة صارت إلى عمليات متواصلة من التفاعل اللانهائي والمتناهي في الوقت نفسه، وهنا نستطيع القول إن « العولمة، تعني بالدرجة الأولى، ...، شيئا واحدا: هو إلغاء الجنسية التآكل التدريجي، وتعني أيضا إمكانية تحويل الدولة الوطنية إلى دولة عبر الحدود»[2] وقد يكون من الشائع عدّ العولمة وجها ثانيا للتغريب الذي يعني تعميم الثقافة الغربية ذهنيا ومعرفيا ومنهجيا ونشرها على الساحة العالمية، وجعلها بديلا من الثقافات الأخرى، غير أن بعض الباحثين يرون أن العولمة ليست هي التغريب فـ« العولمة أمر يختلف عن التغريب البسيط والمحض. العولمة كناية عن ولادة كرة أرضية واحدة هي من الآن وصاعدا ملك الناس أجمعين: إنها ليست ملك

أية حضارة كبرى، ولا سيطرة لأي منها عليها، باختصار لكرة أرضية لا مركز لها. أما التغريب وخلافا لذلك فيعني انقسام العالم إلى مركز مسيطر (بالكسر) وإلى طرف خاضع للسيطرة: إنه اسم آخر للامبريالية والاستعمار. تفترض العالمية ظهور أول كوني عابر للحضارات، أو حداثة ما بعد تاريخية»[3] وإذا ذهبنا إلى البحث عن علاقة الهوية بمقولة أساسية في تاريخ الفكر الغربي فإننا سنقف على ظاهرة الحداثة التي هي أصل العولمة ومبدأ تأسيسها و« من حيث الأصل، تعتبر الحداثة أوروبية بامتياز. وهي عالمية من حيث انتشارها من خلال التغريب. وهي كونية من حيث الطموحات لتكسب شرعية لا مشروطة، عابرة للتاريخ وعابرة للثقافة. وإلى جانب العلم والتقنية –اللذين صارت كونيتهما قاطعة لا يشك بها- أن الإيديولوجيات والعقائد قد باتت وفي إطار العالمية الجديدة نحو نوع من الكونية حتى لو كانتا وخلافا للعلم عرضة للمعارضات الصدامية. لقد رأينا أيضا أن المثقفين قد صاروا فئة اجتماعية "عالمية" عابرة للأمم أو أممية، وذلك من خلال ارتباطها بالتغريب وبالحداثة»[4] ومن هذا ندرك أن الهوية بتعبيراتها المختلفة وفي مقدمتها اللغة أصبحت تحت طائل الحداثة والعولمة بوصفهما غالبا وجها آخر للتغريب؛ وحيث تمثّل اللغة وعاء للهوية وحاضنا لها، فإن الهجوم عليها والسعي إلى تفكيكها هو محاولة لتفكيك الهوية، وهنا علينا أن نعي حدود المماثلة بين الأبعاد النظرية المتعدّدة للهوية الثقافية واللغة بوصفها خطابا مرجعيا أساسيا في المنظومة المجتمعية. اللغة بوصفها المحدّد الجوهري للنظام المجتمعي فـ« ليست اللغة إذا عنصرا من عناصر الثقافة، بل إنها أساس كل أنواع النشاط الثقافي. ومن ثم فهي أقرب الأدلة وأقواها عند استقصاء الملامح الخاصة لأي مجتمع معاصر»[5] وليس هذا الطرح سوىقراءة موضوعيةلحقيقة تاريخية تقول بأن اللغة هي مسكن الوجود، وأداة التعبير عن الذات والثقافة والعالم في المنظور الخاص، وذلك أن «اللغة هي الفكر، ومحال أن يتغير هذا بغير تلك، فقد تسود العصر روح دينية صوفية، تبحث عن الغيب وراء الشهادة، عن الخفاء وراء الظهور، عن الثابت وراء المتغير، عن المطلق وراء الجزئي النسبي العابر، عن البقاء وراء الفناء، فعندئذ ينعكس هذا كله على طريقة استخدام الناس للغة –في مدارج الثقافة العليا لا في تصاريف الحياة اليومية- فتراهم يجعلونها للإيحاء لا للدلالة فهي أداة عروج للسماء لا وسيلة اتصال بالواقع، ثم تسود العصر روح علمانية واقعية، ينشغل الناس فيها بالعلوم الطبيعية والرياضية أكثر مما ينشغلون بالوجد الصوفي وتسبيح المتدين، فعندئذ كذلك ينعكس ذلك على اللغة، فترى أصحابها يتخذون منها أداة ترمز إلى الواقع المحسوس»[6] وهكذا سنرى أن اللغة هي تجسيد لرؤية المجتمع وتمثيل لحقائقه الذهنية والنفسية والشعورية، ومن ثم لوجوده الإنساني ككل، ومن خلالها تتمظهر الهوية كما أنها تتمظهر هي الأخرى عبر الهوية وفيها.

فاللغة مسكن الوجود كما يقول فلاسفة التأويل، وهنا يمكننا إدراك البعد النفسي والأنطولوجي للغة، كما يمكننا من وجهة نظر أخرى تجاوز الحد الذاتي والفرداني للموقف من اللغة والحديث عن قضية الوعي الجمعي والتمثيل الثقافي، وبالتالي عن المؤدّى الحضاري للغة انطلاقا من حدها المجرّد بوصفها كما يذهب ابن جني أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وصولا إلى ما يمكن ما تفضي إليه التصوّرات الأكثر جذرية والأكثر تداخلا وتغلغلا في أنساق الخطابات والمعارف المتنوّعة؛ حيث تصير اللغة إلى المعنى الهوياتي في منحاه الوجودي، وتأخذ وظيفتها وحقيقتها الحضارية.

وعلى ذلك فمسألة الهوية ليست بمعزل عن اللغة؛ من حيث كنهها وضرورة تحققها لا من حيث مجرّد كونها عنصرا مساهما في تشكّلها، و«إذا كانت اللغة لا تنفصل عن هوية أهلها-لأن الهوية تقع في صميم ما تعنيه اللغة، وفي آلية عملها، وكيفية تعلمها، وكيفية استعمالها كل يوم، من كل شخص، في كل وقت، فإنها، بلا شك، تتأثر تأثرا عميقا بما يصيب هذه الهوية من تغير أو تبدل أو انزياح»[7] أي أن العلاقة بين اللغة والهوية واللغة هي علاقة جدلية أولا، ثم هي علاقة تأثير وتأثر ثانيا.

ولا يمكن النظر إلى الهوية إلا في صورة تمثيلها لكل ما لا يكون في ذاته إلا بالعناصر والسمات الهوياتية التي تساهم في تحقيقه وتمييزه، و« يمكن القول، في البداية، إن الهوية مجموعة من السمات التي تسمح لنا بتعريف موضوع معين. وبناء على ذلك فإن التحديد الخارجي للهوية يكون بالبحث عن هذه السمات وتحديدها»[8]فإذا أردنا أن نعرف الثقافة العربية مثلا وهي ثقافة مركبة من جملة من الخصائص والمقومات فعلينا معرفة هذه السمات التي بها تكون الثقافة العربية، وإذا كانت مجمل هذه السمات متمظهرة في النظام اللغوي؛ فذلك يعني أن اللغة ستكون المدخل الطبيعي والصحيح لمعرفة الثقافة العربية وتمييز حدودها الهوياتية.

ولذلك فإن أي خصومة مع اللغة العربية ستكون بالضرورة خصومة مع الهوية، أو لنقل إن الخصومة المبطنة مع الهوية ستكون خصومة ظاهرة مع لغة هذه الهوية؛ التي هي في هذه الحال: اللغة العربية.

3- اللغة العربية وسؤال التجديد:

ولكن إذا كانت علاقة اللغة العربية بالهوية علاقة تماه، فهل يبرر ذلك النظر إلى

هذه اللغة على أنها قالب نهائي غير قابل للتطوير والتجديد بتطوّر المراحل التاريخية وبروز دوافع خاصة تدعو إلى ضرورة مسايرتها للتغيرات التاريخية العامة؟

نستطيع هنا أن ندرك أن النظر إلى اللغة العربية هذه النظرة المقتضبة ينأى بها عن التصور المعتدل الذي يقف بين طرفيْ النقيض، والذي يرى أن مسألة التطور اللغوي ينبغي ألا تفسّر

بطريقة سلبية دائما، ولنا أن نلمس ذلك فيما يصطلح عليه بـ"لحن العوام" أي الأخطاء الشائعة عند طبقة الكتاب والمثقفين، الذي قد يعد تطورا طبيعيا للغة، خاصة أن المعاجم اللغوية توقفت غالبا عند مرحلة جمع اللغة، فـ«**الناظر إلى المعاجم العربية جميعها، يرى أن مادتها اللغوية قد قام بجمعها الرعيل الأول من اللغويين الذين ساحوا في الجزيرة العربية، يجمعون اللغة من أفواه العرب، ثم توقفت حركة الجمع هذه بعد فترة من الزمن، واقتصرت جهود اللاحقين من اللغويين على تنظيم هذه المادة وترتيبها في أشكال مختلفة**»[9] أي أن اللغة التي جمعت أصبحت معيارا لما سيأتي من عبارات وألفاظ وأساليب مستجدة، وهو ما يحول دون التبصّر بحقيقة التطوّر الدلالي، ويرى رمضان عبد التواب «**أنه إذا جمع كل تراث لحن العامة، وحقق تحقيقا علميا أمينا، فإننا نستطيع أن نمسك إلى حد ما بخيط التطور، ونلمس اتجاهاته على مر الأزمنة، وفي مختلف الأمكنة التي كانت تتكلم العربية**»[10]وهذا ما سيمكن اللغة العربية من التكيّف مع مجمل التحوّلات التاريخية والاجتماعية، التي تعبّر عن اطّراد وإلزامية الصلة بين اللغة والفكر «**فالفكر هو المضمون الخفي أو الطاقة القصوى للكلام، هو المعنى الذي نكشف عنه عندما نتأمل القيمة التصورية لكل وحدة من وحدات الكلام. ولكن هذا بالذات يعني أن الفكر واللغة ليسا في الاعتبار الفلسفي شيئا واحدا. فالكلام بالنسبة للفكر هو أولا وقبل كل شيء عملية مصاحبة له غير خالقة له على وجه اليقين، هو رفيق لهذا الفكر يعمل بدأب وتواضع على أن يرتفع لمستواه، وبالتالي فهو من جهة أخرى ليس كما يظن البعض بطاقة نلصقها في النهاية على الفكرة عند بلوغها في العقل مبلغ الوجود**»[11] على معنى أن الكلام هو محاولة لتجسيد الصيغ الذهنية للفكر في صورة رموز تلفّظية تؤدي وظيفة تحقيق المماثلة بين المتن اللغوي والواقع الذهني، وهي بذلك تجعل من اللغة -في النهاية- خادمة للفكر؛ أي أن التغيّر الدلالي مرتبط بحقيقة الإبدالات الفكرية التي تؤطر التغيّر في أنظمة المجتمع.

ولا يتوقف الأمر –في مسألة التطوّر والتجدّد اللغوي- عند قضية "لحن العوام" وظلالها التاريخية والاجتماعية، ولكن يتعدّى ذلك إلى قضية مركزية في الدراسات اللسانية الحديثة وهي: قضية تجديد وتسير النحو أو القواعد اللغوية، وتحقيق أكبر قدر ممكن من الانضباط بالقواعد النحوية عند المتكلمين والكتبة باللغة العربية، من أجل تجنّب التعقيدات التي رافقت تطوّر التقعيدات النحوية التقليدية، وجعلت القبض على حدود المعرفة بهذا العلم صعبة بالنسبة لكثير من المتعلمين.

ويرى بعض الباحثين أن «**معرفة الضبط لأواخر الكلمات في الكلام العربي المفيد، أمر ممكن وميسور لكل قارئ وكاتب، انقطع عن التعلم للعربية، واشتغل بالحياة العملية أو العلمية أو الأدبية، إذا لم يستهدف إعراب الكلام إعرابا متخصصا، وإذا اكتفى بالتمييز بين ما هو عمدة في**

الكلام وما هو مكمل فيه»[12]فالاكتفاء بأصول النحو وأساسياته يوفّر على المتعلمين الوقت والجهد، كما يساهم في تقريب المعرفة النحوية، وتقويم القدرة اللغوية والحفاظ على اللغة العربية سليمة دون الوقوع في خطر التلاشي والاندثار الذي يهدد اللغة إذا ما ظلّت بعيدة عن الاستخدام والتداول، والتطوّر والتكيّف مع التطوّرات الخارجية.

ويمكن الإشارة أيضا إلى قضية نوقشت بإلحاح في فقه اللغة، وهي قضية الاستعارة اللغوية، المرتبطة باستعارة اللغة العربية من اللغات السامية القريبة منها (على مذهب من يرى بأن العربية جزء من العائلة السامية)، أو من عامة اللغات في حالة الحاجة إلى المصطلحات والألفاظ الدالة على معان مستحدثة بشكل خاص، و«**الاستعارة اللغوية هي ما شهر بالمعرب والدخيل وهو كل ما تستعيره لغة معينة من لغة أخرى، مجاورة أو مباعدة أو وراثة، في مستوى الألفاظ والصرف والنحو والأساليب، سعيا وراء تحقيق توازن نظامها الذي خلا من مقولات لغوية لم توفرها بوسائلها الذاتية وذلك لأساب حضارية وثقافية**»[13]

وقد ارتبطت هذه القضية في مستواها الفكري والإيديولوجي بالنزعات المناهضة للغة العربية، والتي ربطت ربطا مباشرا بين العربية والإسلام.

وهنا كانت الصلة وثيقة بين النزعة الشعوبية في منحاها المتطرّف والقول بقبول وتبرير الاستعارة اللغوية خاصة في القرآن الكريم، وهو ما ظهور خط مناوء لهذا الاتجاه التقويضي مثله الإمام الشافعي بصورة خاصة، الذي كان أحد أبرز المناهضين لدعوة الشعوبية، و«**يبدو أن موقف الشافعي من القضية كان يخضع لنفس العوامل لأن رأيه فيها كان يظهر ردّا على الداعين إلى قطع الصلة بين القائمة العروبة والإسلام، ولابد أن نذكر هنا أن الشافعي قد عاش في فترة كثرت فيها الملل والنحل وولى فيها النفوذ العربي الذي قام مقامه شيئا فشيئا نفوذ الفرس وثقافتهم. ووافق ذلك ظهور حركة الشعوبية التي تقابلت فيها العروبة والإسلام ولعبت اللغة في ذلك دورا مهما. فكان دعاة الإسلام المتغلبين يدعون باسم أصحابهم من غير العرب إلى تداخل الثقافات من ذلك الثقافة اليونانية والفارسية والهندية، والعبرية والمسيحية إلخ**»[14] وكانت هذه المطالبة بالتداخل بين الثقافات علامة على الخصومة الصريحة مع اللغة العربية من منظور إيديولوجي، وتبني موقف مبرر للاستعارة اللغوية «**فهم يؤيدون بطبيعة الحال وجود الاستعارة اللغوية في القرآن ويقولون أيضا بفضل الديانات الأخرى على الإسلام. فكان رد الشافعي بأن اعتمد العروبة لمقاومة هذه النزعة الجديدة**»[15] ومن هنا يتضح الارتباط التاريخي بين النزعات المقوّضة للغة العربية، والتوّجه المعارض للدين، وذلك ما

يعني أن اللغة وفق هذا المنظور المضاد المشحون إيديولوجيا ليست سوى تعبير عن المنظومة الهوياتية ككل.

4- اللغة العربية والتجريب الأدبي بين الحصانة والفكاك الهوياتي:

ظلّت علاقة اللغة العربية بالأدب على مدار التاريخ الثقافي علاقة مترنحة بين الالتزام والانفلات، على تنوّع المدارس والاتجاهات الأدبية، فـ« **ليس الدور الذي يلعبه الأدب دورا صغيرا في خلق لغة مشتركة عظيمة...ولقد وجد امرؤ القيس وغيره من شعراء الجاهلية لغة عربية فصحى مشتركة بين القبائل في الشمال والجنوب، فقال شعره وقالوه بها. ولو لم تكن هذه اللغة الفصحى معروفة في العرب ما وجدها امرؤ القيس وأصحابه تستحق أن يقال بها الشعر، ولعزفوا عنها إلى لغة غير مفهومة، أو إلى لهجاتهم المحلية، لأن أول أهداف الشاعر الواعية هو أن يخاطب الناس بشعره**»[16] ومع تطوّر التجربة الشعرية العربية وبروز شعراء من أمثال أبي نواس والمتنبي والحلاج وابن الفارض وغيرهم من الشعراء الذين رأوا في اللغة ملكا للإبداع ولم يرو الإبداع ملكا للغة، مع بروز هذا التوجه الشعري الأقرب إلى رفض التقيد بالتقاليد والقواعد اللغوية كانت اللغة العربية قد دخلت مرحلة المواجهة مع التجديد الأدبي الذي سيتحوّل إلى تحديث ينطلق من المماهاة مع مسار التحديث الغربي، وسيظهر ذلك جليا في حركة التجريب الأدبي في الرواية والشعر وغيرها من فنون الأدب؛ حيث لا تكون« **اللغة في الأدب التجريبي أكثر من وسيلة تعبير وإبلاغ: إنها كائن حي يساهم في رسم الشخصيات، وطرف كامل الحقوق يمثل قضية أساسية. وقد تتحوّل إلى سجن يسعى الإنسان إلى تقويض قضبانه للخلاص من جبروته**»[17] وهكذا يمكن للروائي أو الشاعر أن يتجاوز كل الحدود والضوابط التي تصنعها القواعد اللغوية مثلما جاز له أن ينفلت من الضوابط الاجتماعية والأخلاقية والدينية تحت طائلة التجريب والتخطي المستمر، ومرجع ذلك هو الآراء والتأسيسات الفلسفية والمعرفية التي ترى أن اللغة والهوية ما هما إلا جزء من التاريخ وصورة عن صور تحوّلاته وسيرورته، وبحسب هذا الطرح« **لا يمكن أن تطرح قضية العلاقة بين "اللغة" و"الهوية" اليوم بمعزل عما تحقق من ثورة معرفية في علوم الإنسان والمجتمع، وفي فلسفة الخطاب وتحليله. وهي ثورة تداعت لها آخر المفاهيم والتصورات التقليدية التي كانت تحدد هذه العلاقة. وبرزت حقائق ومعطيات جديدة حولها وحول البعد التاريخي فيها. فالهوية معطى متحول لا يني يتفاعل مع جملة الشروط التي تكتنف وجود الإنسان في التاريخ، وليست ماهية جوهرية ثابتة (statique) وخارج الزمن، واللغة ظاهرة ثقافية اجتماعية في علاقة متينة بالوضع الذي يعيشه المجتمع، إذ من الممكن أن نماهي بين الواجهة اللغوية لمجتمع ما ووجوده التاريخي**»[18] وعليه ستصير اللغة لعبة في يد الأديب سواء بوعي أو بغير وعي، وسواء كان هذا الأديب متمكنا من القواعد اللغوية أم غير متمكن منها.

ومن البديهي بعد ذلك أن يصير التغيير كمسى أو كوهم إبداعي مسلكا لا محيد عنه في الكتابة الأدبية عموما« **ويشتمل التغيير في شكل اللغة الشذوذ عن معاييرها الفنية والبلاغية والأسلوبية، إلى الحد الذي يمكّن المبدع من استخدام اللفظة في غير ما وضعت له، وتسمية الأشياء بغير مسمياتها، وتكسير رتابة اللغة وإعادة تركيبها وتشكيلها، بطريقة خاصة تمتزج فيها عناصر البلاغة التراثية (استعارة، مجاز) بمختلف الصور والأشكال الفنية الجديدة: ك(التشخيص، تراسل الحواس، التجسيم...)**»[19]وهنا يتضّح ذلك المسلك الذي لا يرى في اللغة إلا وسيلة مجردة؛ بل أداة ثانوية للتعبير عن الهواجس والتمثّلات اللامسؤولة للأديب، ودائما ما يكون هذا الفعل الانتهاكي مبررا بمبررات على شاكلة أنه« **يساهم في خلق نص جديد، يحتفل بجماليات التعبير الجديدة في اللغة العربية، ويرتقي بها إلى آفاق مغايرة، تنفتح على دلالات جديدة متنوعة لم يعرضها الخطاب الأدبي الإبداعي من قبل لأن القول الأدبي ليس تركيبا ولا وصفا أو تواليا للألفاظ، فلا يحفظ ولا يتوارث ولا يعلم. إنه بذلك خرق للقانون اللغوي السائد ليخلق قانونه الخاص، قانون الإبداع**»[20]وباسم الجديد يتم التهجم على اللغة العربية وعلى الهوية والثقافة والتاريخ والمجتمع، وهنا يصبح الإبداع مجرّد قناع وثوب جمالي مأدلج بحمولة إيديولوجية لا يمكن أن تكون غائبة بأي حال من الأحوال عن الكتابة الأدبية لأن كل قراءة هي إساءة قراءة كما يقال، ولنضرب مثالا بالشاعر بلند الحيدري، الذي جعل التجريب مدخلا للكتابة باللهجة الشعبية، فـ« **لبلندالتقاطاته من الكلام المتداول والشعبي أحيانا، وأحيانا العامي، ففي إحدى قصائده يستعمل تركيب "ما شفتها" العامية:**

لن أراها

كان حلما ذلك الوعد الذي شد خطاها

بخيالي

لن أراها

ربما ما شفتها يوما

ولم أدرك رؤاها»[21]فالشاعر هنا لا يضيره أن يستخدم كلمة من الدارجة في قصيدة من المفترض أن تكون باللغة العربية الفصحى، مما يعني أن اللغة أصبحت جزءا من تجربة ذاتية خالصة وليست وعاء للثقافة، وتمثيلا للهوية، بل إن الهوية نفسها في هذا السياق هي مجرد فعل تاريخي متحرك.

إن حركة التجريب الأدبي وبالقدر الذي تقول فيه برفضها للإيدلوجية والقولبة والحدود النهائية فإنها سياق إيديولوجي منتهك للهوية من خلال الانتهاك اللغوي، فدعوى عدم الأدلجة غير

ممكنة وغير متحقّقة فعليا؛ لأن الهاجس الإيديولوجي الكامن خلف عمليات الهدم والتقويض المستمرة للصرح اللغوي هو في النهاية تعبير عن إيمان إيديولوجي يتخذ موقفا عدائيا من اللغة إجمالا، ومن اللغة العربية على وجه التحديد.

ولا يمكن أن يكون التجريب الأدبي إلا تمرّدا على اللغة العربية، انطلاقا من بديهية تقول إن الكتابة متجاوزة للحدود والمعايير والأوّليات، على أن النظر إلى اللغة العربية بوصفها مجرد خطاب لغوي ذا طبيعة تواصلية هو تجاوز للحقيقة الثقافية والحضارية للغة وإعراض عن حقيقة تفرّد هذه اللغة وتميّزها، فـ«**من أهم خصائص اللغة العربية وسماتها المميزة، ثراءها المعجمي المتفرد، وبلاغتها المدهشة. فهي تنعم بذخيرة وافرة من المفردات المعبرة عن المعاني الحسية والمعنوية، والتي من خلالها يستطيع الفرد أن يعبر عن كل ما يخطر بذهنه، أو يطوف بمخيلته، أو تهفو له نفسه، بدقة متناهية؛ فيدرك السامع مقاصد المتكلم ومبتغاه دون نقص أو زيادة، شريطة أن يكون المتكلم والمتلقي ملمين بأساسيات هذه اللغة الشريفة**»[22] وذلك يعني بالضرورة أن اللغة العربية –تحديدا- وبخلاف قيمتها الشعورية والهوياتية في سياقها الجمعي فإنها ومن منظور لساني غير متمركز حول الثقافة الغربية هي وعاء لدقائق الأفكار، وأخص المعاني والدلالات؛ أي أنها تحمل في ذاتها القدرة على تضمّن التصوّرات الحيوية المختلفة في شتى أبعادها المجرّة والعملية.

ولاشك أن التمسّك بالهوية اللغوية وكما أنه يعبر عن منحى إيديولوجي محمود فإنه يعبر بشكل أكثر حيوية عن إيمان عميق بالخصوصية الثقافية وبالتالي بالتنوّع الثقافي، ومجانبة الانغماس في مغامرة العولمة الثقافية«**وكذلك اللغة، فإن قيمتها في تمسك أهلها بها، ورواجها بينهم، وتداولها على ألسنتهم، وثقتهم بها في حمل أفكارهم ومعتقداتهم، والتعبير عن انفعالاتهم وعواطفهم، واستخدامهم إياها في كل ما يعنّ لهم من شئون الحياة السهلة، أو القضايا الفلسفية المعقدة، كما تبدو قيمتها كذلك فيما تعبر عنه من رصيد فكري وحضاري كبير**»[23] وعليه فإن الواجب الأخلاقي والعلمي هو الحفاظ على اللغة العربية بوصفها تمثيلا للهوية الثقافية، وبوصفها نوعا من الحصانة الحضارية للإنسان العربي لا مجرد وسيلة للتواصل أو التخاطب، ومعاملة اللغة على النحو سيشكل منعطفا فارقا في تحصين الأجيال من الاختراق وفوضى اللامعنى.

إن مسألة التجريب الأدبي تعني لزاما عدم الإيمان بالثوابت والأصول، وهي القضية التي عادت إليها على نحو ما الدراسات الثقافية وما بعد الكولونيالية؛ التي ركزت على قضية الاختلاف بين الثقافات؛ هذا الاختلاف الذي يعني في صورة من صوره أن محو الخصوصيات الثقافية وقولبتها في

إطار المعطيات الثقافية الغربية تحت مسمى الكوني ليس إلا مهاجمة لتلك الأصول التي تقوم عليها تلكم الثقافات.

خلاصة القول وأهم النتائج التي يمكن أن نقول أننا توصلنا إليها هي:

1- تأتي مسألة دراسة علاقة نزعة التجريب الأدبي بالمنطق الهوياتي للغة العربية بوصفها ضرورة علمية ومنهجية ووجودية عليها مقوّمات الحضور الإنساني للغة كتمثيل للتاريخ والهوية الثقافية.

2- إن إدراك الأخطار الفكرية المشحونة بالإيديولوجيا على اللغة العربية يفترض أن يبدأ من الوعي بأبرز التوجّهات والمحمولات المعرفية في بعدها الثقافي والهوياتي، وفي طليعة هذه المقولات مقولة العولمة كونها محاولة لمحو الآخر، وطمس الاختلافات الثقافية وتعميم التجربة الغربية بالتوجّه الدائم نحو إلغاء الفوارق الثقافية وتذويب الحدود بين الجماعات البشرية.

3- إن الجمود في التعامل مع اللغة مخالف لقوانين حركة التاريخ والمجتمعات، لكن التجديد في هذا التعامل يطلب فيه التوسّط والاعتدال في مراعاة توظيف حدود المرونة المسهمة في تطوير اللغة لا في هدمها مثل التعامل مع ظاهرتيْ لحن العوام والتطوّر الدلالي.

4- تعبر نزعة التجريب الأدبي عن انتهاك صريح لمواد اللغة وقواعدها وبالتالي لأصولها وثوابتها، مما يجعلها منزعا بطبيعة إيديولوجية مناهضة للهوية العربية في جميع مكوناتها اللغوية والدينية والتاريخية لا مجرّد خطاب أدبي معزول.

5- يظهر الاعتزاز باللغة العربية في كونها تمثيلا للهوية الثقافية والحضارية والعناصر التاريخية مثلما هي أيضا لغة ذات كفاءة عالية من منظور لساني وعلمي على التعبير عن أدق المشاعر والأفكار والإبانة عن أعقد الحاجات والرغبات الإنسانية، ومن هذا المبدأ تأتي المسؤولية الأخلاقية للحفاظ على اللغة العربية وتقويتها.

قائمة المراجع:

1. أبو بكر محمد بن حسن بن مذحج الزبيدي، لحن العوام، تحقيق: رمضان عبد التواب، (مكتبة الخانجي، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة/مصر، ط2، 1420ه/2000م)
2. أولريش بك، ما هي العولمة، ترجمة: أبو العيد دودو، (منشورات الجمل، بيروت/لبنان، ط2، 2012)
3. بركات محمد مراد، ظاهرة العولمة رؤية نقدية، (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة/قطر، ط1، 1422ه/2001م)
4. تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، (عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2000.)
5. جيرارد ليكلرك، العولمة الثقافية الحضارات على المحك، ترجمة: جورج كتورة، (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت/لبنان، ط1، 2004)
6. حسن ظاظا، اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة، (دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق/سوريا، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، ط2، 1410ه/1990م)
7. حنان بومالي، مظاهر التجريب اللغوي في المنجز الشعري لبلند الحيدري، مجلة قراءات للبحوث والدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، كلية الآداب واللغات، جامعة معسكر، العدد: 05، جوان 2015،
8. رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، (مكتبة الخانجي، القاهرة/مصر، دار الرفاعي، الرياض/المملكة العربية السعودية، ط1، 1403ه/1983م)
9. زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، (دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط9، 1993)
10. سليمان فياض، النحو العصري دليل مبسط لقواعد اللغة العربية، (مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة/مصر، ط1، (د.ت)
11. شكاط مريم، اللغة في التجريب الروائي الجزائري، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد: 14، 2018
12. عبد المجيد الطيب عمر، منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية، سلسلة: أبحاث الحرمين العالمية 01، الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، (مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، ط2، 1437ه)

13. لطيفة النجار، اللغة العربية بين أزمة الهوية وأزمة الاختيار ضمن كتاب: اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/قطر، ط1، 2013)

14. محمد رشاد الحمزاوي، العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحات، (دار الغرب الإسلامي، بيروت/لبنان، ط2، 1986)

15. محمود طرشونة، مباحث في الأدب التونسي المعاصر دراسات نقدية في مؤلفات المسعدي والمدني والفارسي وخرّيف، (المطابع الموحدة، تونس، ط1، 1989)

16. اليكس ميكشللي، الهوية، ترجمة: علي وطفة، (دار الوسم للخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 1993)

الهوامش:

1بركات محمد مراد، ظاهرة العولمة رؤية نقدية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة/قطر، ط1، 1422هـ/2001م، ص91.

2أولريش بك، ما هي العولمة، ترجمة: أبو العيد دودو، منشورات الجمل، بيروت/لبنان، ط2، 2012، ص38.

3المرجع نفسه، ص483.

4جيرارد ليكلرك، العولمة الثقافية الحضارات على المحك، ترجمة: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت/لبنان، ط1، 2004، ص433.

5تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2000، ص15.

6زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط9، 1993، ص ص 205 206.

7لطيفة النجار، اللغة العربية بين أزمة الهوية وأزمة الاختيار ضمن كتاب: اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/قطر، ط1، 2013، ص ص 201 202.

8اليكس ميكشللي، الهوية، ترجمة: علي وطفة، دار الوسم للخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 1993، ص15.

9أبو بكر محمد بن حسن بن مذحج الزبيدي، لحن العوام، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة/مصر، ط2، 1420هـ/2000م، ص6. (من مقدمة المحقق).

10المرجع نفسه، ص07.

11حسن ظاظا، اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق/سوريا، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، ط2، 1410هـ/1990م، ص78.

12سليمان فياض، النحو العصري دليل مبسط لقواعد اللغة العربية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة/مصر، ط1، (د.ت)، ص09.

13محمد رشاد الحمزاوي، العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحات، دار الغرب الإسلامي، بيروت/لبنان، ط2، 1986، ص157.

14المرجع نفسه، ص152.

15المرجع نفسه، ص152.

16تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، (مرجع سبق ذكره)، ص181.

17محمود طرشونة، مباحث في الأدب التونسي المعاصر دراسات نقدية في مؤلفات المسعدي والمدني والفارسي وخرّيف، المطابع الموحدة، تونس، ط1، 1989، ص114.

18ناجية الوريمي، النهضويون العرب من تجديد اللغة إلى تجديد الخطاب مقاربة نقدية ضمن كتاب: اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، (مرجع سبق ذكره)، ص149.

19شكاط مريم، اللغة في التجريب الروائي الجزائري، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد: 14، 2018، ص327.

20المرجع نفسه، ص327.

21حنان بومالي، مظاهر التجريب اللغوي في المنجز الشعري لبلند الحيدري، مجلة قراءات للبحوث والدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، كلية الآداب واللغات، جامعة معسكر، العدد: 05، جوان 2015، ص ص 224 225.

22عبد المجيد الطيب عمر، منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية، سلسلة: أبحاث الحرمين العالمية 01، الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، ط2، 1437هـ، ص219.

23رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة/مصر، دار الرفاعي، الرياض/المملكة العربية السعودية، ط1، 1403هـ/1983م، ص170ص171.